

بكاء مرتيلو كان على مارتا لأنه أصبح لا يحظى بها ، لأنه لا يستطيع أن يحدثها ويقبلها كما كان يفعل من قبل ، لأنه لا يستطيع أن يغني معها على الغيتار بصوت مزدوج وبرزاتة ، تلك الأغاني الحزينة التي غناها سنين خلت .
ستعذرني ، سيد دون كاميلو خوسيه ، على اضطرابي الشديد . لكن حديثي عن هذه الأشياء كلها هو كالنظر إلى الأطفال وهم يلعبون . فلا يهم المدى الذي يصلون إليه في لعبهم ، كما لا يهم النظر إلى الحفر التي حفرها الصغار على رمل الشاطئ لمعرفة أيها أعمق أو أنحل .

قلنا إذاً ، إنه لم يكن هو وإنما السيدة خوستينا حماته من عصف بسني مارتا الثلاث والعشرين . المسألة هي أن الحقيقة أبطأت حتى تكشفت إبطاء الزمن بالعجوز ذاتها حتى ماتت ؛ لأن الشريرة التي كانت تخشى الموت ولا ريب ، حرصت أشد الحرص على الصمت دائماً حتى حينما كانت ترى صهرها في أشد المآزق حرجاً . وخفف من وطأة الشر لديها أن خطر لها - لما حملها الشيطان - أن تترك رسالة مكتوبة كاشفة فيها عن الحقيقة . ولو لم تفعل ذلك لظل المسكين مرتيلو حتى يومنا هذا يضيف تفاصيل جديدة إلى سانتاماريا... كانت العجوز تنطوي على سر كبير ، فلم تقل لي الحقيقة ولم تقلها في لحظة الموت إلى كاهن الاعتراف ولا لأحد . فهي وإن كانت تصرخ صراحاً أن يؤخذ الاعتراف منها حسبما قيل ، فإنه يشق علي الاعتقاد أنها لم تكن هرطقية . المسألة - كما قلت - أنها تركت رسالة مكتوبة أقرت فيها بما كان ، وأخرج البريء من السجن مع كمية كبيرة من ورق الإجراءات الرسمية ، على الأقل بحجم الأوراق لما أدخل السجن . وإذا كان نافخ زجاج ممتازاً ، وكان وولف يقدره ، فقد التحق مرة أخرى بالمعمل الذي زيد فيه جناحان آنذاك . وبدأ يعمل ، وهو وإن لم يكن ثرياً فقد كان مستريح البال .